ثنائيّات جزاء المؤمنين والكافرين في القرآن الكريم
دراسة موازنة

أ.م.د. عدي خالد محمود عبد الله البدراني

كليّة العلوم الإسلاميّة – جامعة الفلوجة

المقدّمة

إذا استقرأنا تاريخ النقد الأدبي العربي نجد أنّ جهابذته الأعلام هم من المهتمين أساسًا بالدراسات القرآنيّة، وعلى رأسهم الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، والجرجاني (ت٤٧١هـ)، وغيرهم. بمعنى أنّ الناقد العربي القديم لم يكن بمعزل عن السياق الكريم ودراسته، بل لا نجانب الصواب إذا قرّرنا أنّهم تمكّنوا من الإبداع في ميدان الدراسات القرآنيّة بالإفادة من معطيات الدرس البلاغي النقدي القديم، الذي يشتمل على الدرس اللغوي والبلاغي وغير ذلك من علوم العربيّة.

وما أحوجنا اليوم إلى منهج يفيد من هذه المعطيات، ويوظّفها في استلهام كثير من الدلالات التركيبيّة للسياق الكريم، الأمر الذي نطمح لتحقيقه في بحثنا هذا.

ومن الموضوعات التي تستدعي الوقوف عندها، وتأمل دلالاتها (الثنائيّات) سواء أكان ذلك بالمفهوم القديم الذي يجسّد ماهيّة فنّ الطباق[١] في إدراك دلالاتها، أم بالمفهوم الحديث الذي ينفتح على دلالات السياق التركيبيّة لتحقيق هذه الغاية. ومن هنا وجدنا لأنفسنا الباب مفتوحًا لنيل شرف الدراسة في هذا المضمار، على أنّ هذه الدراسة لا تخلو من مواطن الاجتهاد على مستوى التأويل، أدعوه –سبحانه– أن يهديني للصواب، إنّه على ما يشاء قدير.

أمّا طبيعة دراسة بحثنا فقد أخذ الباحث على عاتقه منهجيّة الانتخاب للنصوص الكريمة؛ لتعدّد ثنائيّات القران الكريم من جهة، ولتشابه كثير من دلالات هذه الثنائيّات من جهة ثانية، ولضيق بحثنا من جهة ثالثة. وجدير بالذكر أنّ النصوص الكريمة التي تُنتخب للدراسة هي ما اشتمل بناؤها على ثنائيّات متوازنة[٢] في عرض جزائي المؤمنين والكافرين.

وأمّا من حيث تصنيف الثنائيّات؛ لتشكيل مطالب البحث فقد اتبعنا منهجيّة تبويب جزاء المؤمنين والكافرين، أو جزاء أهل الجنّة وأهل النّار على وفق الجهة التي تدرك نوع الجزاء، وتحديدًا الحسّ أو الروح، بمعنى أنّ الجزاء – نعيمًا أو عذابًا– يُدرك إمّا بوساطة الحسّ أو الروح، الأمر الذي وجدنا فيه منطلقًا لهذا التبويب، ومن الله التوفيق والسداد.

أ.م.د. عدي خالد محمود

أولا. ثنائيّات النّعيم والعذاب الحسّيّين

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٣]، في هذا السياق الكريم يمكن رصد أكثر من ثنائيّة، وعلى وفق ما يأتي:

الفريق الأول			الفريق الآخر		
عمله الأول	عمله الآخر	جزاؤه	عمله الأول	عمله الآخر	جزاؤه
طغى	آثر الحياة الدنيا	الجحيم	خاف مقام ربّه	نهى النفس عن الهوى	الجنّة

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر ما يأتي:

١. قسّمنا هنا الفريقين على هذه الشاكلة، وإذا اتفقنا أنّ الفريق الآخر هو من الذين آمنوا فلا يمكن عدّ الفريق الأول إلى طائفة بعينها؛ لأنّ النصّ الكريم لم يصرّح بذلك من جهة، ولأنّ عمله هنا ينطبق على عمل كثير من الخلق، من جهة أخرى.

٢. العملان المتقابلان لكلا الفريقين يشكّلان ثنائيّتين مستقلتين: أمّا الطغيان فيقابله الخوف من مقامه تعالى، وأمّا التعلق بالحياة الدنيا – ومن أبرز مظاهره: الحرص عليها، وطول الأمل[٤] – فيقابله كفّ النفس عن أهوائها، فضلا عن ثنائيّة ثالثة تتمثّل بـ(الجحيم، الجنّة). والذي يبدو للباحث – بعد التأمّل– أنّ ثنائيّتي عملي الفريقين واضحتان جدًا، ولكن ثنائيّة الجحيم والجنّة تستدعي تأمّلا أوسع؛ لا من وجهة المفهوم العام للتسمية، ولكن من وجهة التوظيف اللفظي تحديدًا، فلكي ندرك هذه الدلالة بدقة يتساءل البحث: لماذا الجحيم تحديدًا؟ وليس النّار، أو السعير، أو غير ذلك من أسماء النّار؟.

إذا قرّرنا أنّ (الجنّة) طرف من طرفي الثنائيّة فلا بدّ من تأمّل الطرف الآخر، وهو لا يخلو أن يكون أحد أسماء النّار، وهنا ورد اسم (الجحيم) ويقول فيه صاحب اللسان: (جحَم النّار: أَوْقَدها. وجَحُمَت نارُكم تَجْحُم جُحوماً: عَظُمت وتأَجَّجَتْ، وجَحِمتْ جَحَمًا وجَحْمًا وجُحومًا: اضْطَرَمَتْ وكثُر جَمْرُها ولَهَبُها وتوَقُّدها، وَهِيَ جَحيمٌ وجاحِمةٌ. وجَمْرٌ جاحِمٌ: شَدِيدُ الاشتِعال)[٥]، وكل هذه الصفات تحقق مدلول الطرف الآخر من الثنائيّة، بمعنى أنّ مدلولات الأسماء الأخرى للنار ليست مقصودة في هذه الثنائيّة بقدر القصد من توظيف دلالة هذه الصفة، والله أعلم.

٣. من الواضح أنّ الثنائيات تقوم – بوجه أو بآخر– على مفهوم الطباق، ومعلوم أنّ (العنصر الجمالي في الطباق هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أنّ المتقابلات أقرب تخاطرًا إلى الأذهان من المتشبّهات والمتخالفات)[٦]، وبهذا يكون فنّ الطباق – في هذا السياق وفي سواه– وسيلة فاعلة في إذكاء ذهن المتلقّي لإدراك الدلالات.

قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٧].

للوهلة الأولى يبدو تشابه السياقين، ولاسيّما تركيبي الجزاء، وهذا ما يحقق الإشارة إلى النّعيم والعذاب الجسديين على حدٍ سواء، ولكن إذا عدنا إلى مقدمتي التركيبين، نجد أنّ تباينًا في أمرين على أقل تقدير، وهما: أولا إنّ جملة الخطيئة يقوم تركيبها على الشرط، ويقوم تركيب الأخرى على الإخبار. ثانيًا يستدعي ذلك حضور حرف الفاء في تركيب جزاء الخطيئة، وعدمه في التركيب الآخر.

ومعلوم أنّ الجملة المبنيّة على اليقين –أي الإخبار– أقوى في دلالتها وأشدّ تأكيدًا من التي بُنيت على الشرط[٨]. وبهذا يفهم أنّ جزاء الذين آمنوا يكون باتًا مقطوعًا به. أمّا جزاء من يكسب خطيئة فهو أقل حدّة في الحكم؛ وقد يدلّ ذلك على عفوه ومغفرته تعالى؛ إذ من الوارد جدًا نسخ هذا الحكم، إذا ما تاب العبد لربّه، وقد يكون في ذلك سببًا لبناء هذه الجملة على الشرط، البائن في قوة دلالته عن جملة الإخبار، والله أعلم.

وإذا صحّ ما ذهبنا إليه يكون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٩]. فلا يعقل أن تعدل "مثقال ذرة" العمل الصالح، فتساويه بالجزاء، وإنّما تكون سببًا بشمول صاحبها بعفوه تعالى ومغفرته، وهذا يعني شمول رحمته تعالى أناسي كثر، لا يستحقون الجنّة فيدخلونها، والله أعلم.

أمّا دلالة الفاء فهي الأخرى من بشارات ربّنا لعبيده؛ ولاسيمّا إذا أدركنا أن هذه الفاء يمكن أن تدلّ على السببيّة، وشرط السببيّة أن يكون ما بعدها مسببًّا عمّا قبلها، كما لو صرّح بالشرط[١٠]، بمعنى أنّ دخول أصحاب الخطيئة النّار بسبب ما كسبت أيديهم، بينما لا ينال الجنة عبد بعمله مطلقًا، وهذا ما صرّح به رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله: (لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ)[١١]، وبهذا يمكن أن تشمل رحمته تعالى عددًا كبيرًا من عباده.

ودلّت (الفاء) هذه الدلالة في مواطن أخرى من كتاب الله العزيز، كما في (فلهم) من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾(١٢).

بمعنى أنّ أصحاب النّار يدخلونها بسبب ما كسبته أيديهم؛ بحكم (الفاء) السببيّة في (فلهم)، بينما لا تكون أعمال أصحاب الجنّة سببًا في دخولها؛ لغياب دلالة السببيّة، التي دلّت عليها الفاء، في سياق أصحاب النّار، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(١٣).

ويمكن أن نرصد هنا ثنائيّتين: الأولى تتمثّل في تركيبي: (من ثقلت موازينه، ومن خفّت موازينه)، والأخرى تتمثّل في تركيبي: (هو في عيشة راضية، وأمّه هاوية).

أمّا الثنائيّة الأولى فهي في (ثقلت، خفّت) ولأنّه من طباق الإيجاب فلا يحتاج للتوضيح.

أمّا الثنائيّة الأخرى فللسياق أثر بالغ في تحقيق معنييها، وهما: شدة السعادة، وشدّة الشقاء، ولكن السبيلين لتحقيق هاتين الدلالتين مختلفتان من طرف لآخر، فسبيل تحقيق معنى السعادة من خلال المجاز(١٤)، حيث نسبة الرضا للعيشة، (وَالْعِيشَةُ لَيْسَتْ رَاضِيَةً وَلَكِنَّهَا لِحُسْنِهَا رَضِيَ صَاحِبُهَا، فَوَصَفَهَا بِ راضِيَةٍ مِنْ إِسْنَادِ الْوَصْفِ إِلَى غَيْرِ مَا هُوَ لَهُ وَهُوَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الرِّضَى بِسَبَبِهَا حَتَّى سَرَى إِلَيْهَا)(١٥).

وأمّا تحقيق معنى الشقاء ففي قوله تعالى: (فأمّه هاوية) وفي ذلك أقوال يذكرها الرازي (ت٦٠٦هـ)(١٦)، لكنّ البحث يذهب إلى أحدها، إذ (قِيلَ: لِلْمَأْوَى أُمٌّ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ بِالْأُمِّ الَّتِي لَا يَقَعُ الْفَزَعُ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا إِلَيْهَا)(١٧)، وقوله "قيل للمأوى أم" يعني أنّ المأوى مشبّه وهي الهاوية، وتقدير التشبيه هاوية كأمّه، فقلب التشبيه من جهة، وحذفت أداته ووجه شبهه من جهة أخرى، فصار التشبيه مقلوبًا بليغًا. وما يؤيد ما ذهبنا إليه أنّ السورة الكريمة تختتم بعبارة: (وما أدراك ما هي نار حامية) فيرى البحث أنّ هذا السؤال والجواب متوافقًا مع ما ذهبنا إليه، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾(١٨).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على فئتين، وعلى وفق ما يأتي:

الذين كفروا		الذين آمنوا وعملوا الصالحات	
جزاؤهم	وصف جزائهم	جزاؤهم	وصف جزائهم
جملة (سوف نصليهم)	جملة (كلما نضجت)	جملة (سندخلهم)	جملة (تجري)

يتضح من المخطط جملة من الثنائيّات، ومن المناسب أن نتأمل ثنائيّة وصف الجزاء لكلا الفريقين، ومن ذلك حضور أهل النّار في جملة وصفها، وغياب أهل الجنّة عن جملة وصفها، بمعنى حالة تقييد وصف أهل النّار بوصفها، وعدم وجود هذا التقييد مع أهل الجنّة، وقد يدلّ هذا الأسلوب على أنّ أهل النّار في منزلتها من السوء؛ فاستحقوها، وأهل الجنّة ليسوا كذلك؛ فوهبوها، وقد يدلّ عدم التقييد على نوع خاصّ من الترف لأهل الجنّة، والله أعلم.

ويلحظ تعدّد مظاهر نعيم أهل الجنّة، وأهم هذه المظاهر: (الجنّة وأنهارها، والأزواج المطهرة، والظل الظليل) فضلا عن ثواب أعظم من ذلك كله، وهو الخلود في هذا النّعيم.

قال تعالى: ﴿... إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾(١٩).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على فئتين، الأولى للظالمين، وهي الآتي:

جزاؤهم	الصفة الأولى للجزاء	الصفة الأخرى للجزاء	نوع الشراب	تقويم عام للجزاء
النّار	**أحاط بهم سرادقها أي (النّار)**	جملة (إن يستغيثوا)	بئس الشراب	ساءت مرتفقا

وأمّا الفئة الأخرى فللذين آمنوا وعملوا الصالحات، هي الآتي:

جزاؤهم	الصفة الأولى للجزاء	نوع الثواب	تقويم عام للجزاء
جنات عدن	تجري من تحتهم الأنهار	نعم الثواب	حسنت مرتفقا

ويلحظ على جزاء المؤمنين ثلاث صفات أخرى، تتمثّل في جملة (يحلّون)، وجملة (يلبسون)، وجملة (متكئين). وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. جاء التعبير عن النّار بصيغة الإفراد، والتعبير عن الجنّة بصيغة الجمع، وفي ذلك دلالة على كرمه تعالى في جزاء المؤمنين؛ فالذين استحقوا النّار جزاهم بنار واحدة، والذين لم يستحقوا الجنة جزآهم بجنات متعدّدة، والله أعلم.

٢. في حال الظالمين (أحاط بهم سرادقها) يقابله في حال المؤمنين (تجري من تحتهم). يمكن أن يجمع التعبيرين حقل دلالي واحد، وهو (الإحاطة)، فالسرادق تحيط بالظالمين، والأنهار تحيط بأهل الجنّة، ولكن شتّان بين الإحاطتين. وبذلك تتحقق مقابلة سياقية دقيقة بين التركيبين.

وإذا صحّ ما ذهبنا إليه فيكون سبب إضافة الظرف (تحت) لضمير الجمع، في حين نجد كثيرا من تعبيرات مناظرة بنصّ (من تحتها) إي من تحت الجنة، فهنا جاء تعبير (التحتيّة) مختصًّا بأهل الجنّة وليس بالجنّة، كما في سوى هذا الموطن.

٣. في الأصل يحرم الظالمون الماء في النّار، وفي حال استغاثتهم يغاثوا بماء كالمهل، وهنا شدّة الحرمان، يقابله كرم لا محدود؛ إذ تجري من تحتهم الأنهار من غير الإشارة إلى طلبهم لهذا الماء، وقمة العطاء أن يكرم المرء ما لا يطلب.

وبهذا تكون الصفة الأولى والأخرى لجزاء الظالمين تقابلان الصفة الأولى فقط لجزاء المؤمنين، حسب ما ورد في المخطط أعلاه.

٤. الذم بـ"بئس"، والمدح بـ"نعم" جاء بشيئين مختلفين، ففي حال الظالمين الذم للشراب، وفي حال المؤمنين المدح للثواب بمجمله، وهنا يمكن القول إنّ المدح جاء على الأصل، أمّا الذمّ فجاء لما كان مطلوبًا مرغوبًا من لدن الظالمين، فإذا كان الذين استغاثوا وطلبوا سيّئًا فكيف بما سواه؟ وفي المقابل لم تذكر الآية الكريمة أمرًا مرغوبًا فيه لدى المؤمنين، لذا جاء المدح لعموم الثواب، والله أعلم. يبقى أن ننبّه على أنّ الثواب والعقاب حسيّان.

٥. ويختتم وجه الموازنة بالذم والمدح لكلا الحالين على حدٍ سواء، (أي:ساءت، وحسنت).

٦. يلحظ إضافة ثلاثة أوصاف لجزاء المؤمنين، ليس لها مقابل لدى حال الظالمين، وهي: ما يخصّ الزينة من الحليّ، وما يلبس من ثياب فاخرة، وصف حالة الاتكاء، وهي كناية عن أرقى درجات النّعيم.

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾[٢٠].

ويمكن تصنيف بعض دلالات النص الكريم على فئتين:

الأولى للذين كذّبوا بالساعة، وعلى وفق ما الآتي:

جزاؤهم	الصفة الأولى للجزاء	الصفة الأخرى للجزاء
السعير	جملتا: (إذا رأتهم) و(إذا ألقوا منها)	جملة (لا تدعوا اليوم)

وأمّا الفئة الأخرى فللمتقين، وعلى وفق ما الآتي:

جزاؤهم	الصفة الأولى للجزاء	الصفة الأخرى للجزاء
جنّة الخلد	جملة (لهم فيها)	الخلود

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يلحظ تكرار عبارة التكذيب بالساعة، مرة بالإسناد للجمع، وأخرى للإفراد، ويمكن أن يدلّ هذا التكرار على التوكيد اللفظي، ويمكن أن يدلّ الاختلاف في الإسنادين على تخصيص العقاب بمن يستحقه، وتأكيد دلالة قوله تعالى: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)[٢١]، والله أعلم.

٢. جاء التعبير عن عمل الكافرين بصيغة الفعل (كذّب)، وجاء التعبير عن عمل المؤمنين بصيغة الاسم (متقين)، ومعلوم أنّ (الجملة الاسمية تفيد بأصل وضعها الثبوت... والجملة الفعلية تفيد الحدوث... وعدم الاستقرار)[٢٢]. ومعنى ذلك – والله أعلم– أنّ فعل التكذيب يكفي لأن يهلك صاحبه، بينما فعل التقوى لا يحقق لصاحبه النجاة؛ وإنّما يتطلب الأمر المداومة على التقوى، والثبات عليها، والله أعلم.

٣. جاء التعبير عن الجزاء باسم (سعير)، وجاء التعبير عن الجنّة بـ(جنّة الخلد)، ويمكن أن يجملهما حقل دلالي واحد، وهو (الاستغراق في الزمن)؛ فاستعرت استوقدت[٢٣]، ومضى على اشتعالها زمن طويل، وفي ذلك كناية عن شدّتها، وجنّة الخلد نسبة لامتداد زمنها للأزل. وبهذا يمكن أنّ يدلّ السياق على الاستغراق في الزمن الماضي بالنسبة للنار، واستغراق في زمن لاحق بالنسبة للجنّة – والله أعلم – على أنّ كلا الجزاءين حسيّان.

٤. أمّا الصفة الأولى لكلّ من السعير وجنّة الخلد – على وفق المخطط أعلاه– فيمكن أيضًا أن يجملهما حقل دلالي واحد، وهو (انطباع النفس عن الجزاء)؛ فتغيّظ النّار وزفيرها يمكن

أ.م.د. عدي خالد محمود

أن يكونا كناية عن شدّة غيظ أهلها، وممّا يعزز هذه الدلالة جملة من الألفاظ، وهي: (ألقوا، مكان ضيق، مقرنين، دعوا ثبورا)، يقابله شدّة ارتياح أهل الجنّة فيها؛ فلهم فيها ما تشاء أنفسهم.

٥. وكذلك الصفة الأخرى لكلا الحالين – حسب المخطط أعلاه– يمكن أن يجملهما حقل دلالي واحد، وهو (المضاعفة في الجزاء)؛ أمّا مضاعفة العذاب فمن خلال قوله تعالى (ادعوا ثبورا كثيرا) وأمّا مضاعفة النعم فمن خلال ذكره تعالى الخلود صراحة بقوله (خالدين)، والله أعلم.

٦. ومن الاختلافات الواضحة في كلا الحالين عدم الإشارة لوعده تعالى أهل السعير بها، وإنّما هي جزاء ما قدمت أيديهم. يقابل ذلك وعده تعالى الصريح لأهل الجنّة، وجاء هذا الوعد مرة على سبيل الإخبار، وأخرى على سبيل التأكيد بوساطة المفعول المطلق (وعدًا)، وهذا يدلّ بوضوح أنّ الجنّة لا يستحقها أهلها بأعمالهم، وإنمّا يكرمهم الله بدخولها. بمعنى أنّه تعالى عدل مع أهل السعير، كريم مع أهل الجنّة.

قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّار كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّار الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(٢٤).

يبدو للبحث توزيع الدلالات على ثلاثة محاور، ضمن فئتين، أمّا الأولى فللذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهي الآتي:

جزاؤهم	نوع الإقامة في مأواهم	سبب هذا الجزاء
جنات المأوى	نُزلا	بما كانوا يعملون

وأمّا الفئة الأخرى فللذين فسقوا، وهي يأتي:

جزاؤهم	نوع الإقامة في مأواهم	سبب هذا الجزاء
النّار	كلما أرادوا أن يخرجوا أعيدوا فيها	بما كانوا يكذبون

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. بعد حرف الفاء المقترن بجواب (أمّا التفصيليّة) يختلف التركيبان؛ ففي سياق المؤمنين: "لهم جنات المأوى" وفي سياق الكافرين: "مأواهم النّار" أي: إنّ المؤمنين يُكرمون الجنّة، من غير استحقاق بالعمل، والكافرين يُجزون النّار؛ باستحقاق بالعمل، كما ذكرنا آنفًا.

٢. يلحظ أنّ إقامة المؤمنين في جناتهم موصوف بالنّزل (والنّزل ما يُهيّأ للنزيل ... والنُزل في الأصل قِرى الضيف)[٢٥]، وفي ذلك دلالة واضحة لكرمه تعالى في هذه النزل، يقابل ذلك ما يلاقيه الذين فسقوا في مأواهم، حيث الإكراه على المكوث في النّار. وبذلك يتضح أنّ جزاء كلٍّ من الفريقين حسيًّا.

٣. وكذلك يبدو واضحا الاختلاف في سبب مأوى كلا الفريقين، كما هو واضح في الآيتين الكريمتين، وكما هو واضح في المخطط أعلاه.

قال تعالى في مظاهر نعيم أهل الجنّة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[٢٦]، وقال في السياق نفسه في ذكر مظاهر عذاب أهل النّار: ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[٢٧].

يتضح من السياق الكريم جملة من الثنائيّات في ذكر ضرب من طعام أهل الجنّة وشرابهم، من جهة، وضرب من طعام أهل النّار وشرابهم من جهة أخرى. وهنا الفرق بيّن بين كلا الدلالتين، ولكن ثمّة دلالة أخرى تتعلق بالاختلاف بين التركيبين؛ من حيث حضور دلالتي الأكل الشرب في سياق أهل النّار من جهة، والتعبير عنهما بوساطة الاسم –الدال على الثبوت– من جهة ثانية، واقتران دلالة الأكل والشرب بـ (اللام المزحلقة) الدالّة على التوكيد من جهة ثالثة. يقابل ذلك عدم حضور هذه الدلالة في سياق أهل الجنّة من جهة، بل حضور دلالة التخيير – ضمنًا أو صراحة – من جهة أخرى، الأمر الذي يمكن أن يدلّ على الإباحة، والإكراه، الدالّين على التكريم والإذلال، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢٨].

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

الفريق الأول			الفريق الآخر		
عملهم		جزاؤهم	عملهم		جزاؤهم
جملة (يدعون)	جملة (يأمرون)	جملة (ينهون)	المفلحون	(تفرّقوا)	جملة (اختلفوا)	جملة (أولئك)

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يلحظ ذكر أعمال متعدّدة لأهل الفلاح، وذكر جزاء واحد لهم، على غير ما أسلفنا، وقد يكون السبب في ذلك بناء النصّ الكريم على الأمر في الآية الأولى، والنهي في الأخرى، الأمر الذي يناسب توجيه العباد بأنّ الفلاح جزاء عظيم يتطلب أعمالا عدّة، ولكن لا يعني هذا أنّ هذه الأعمال بجملتها تعدل الجزاء؛ لانّ دلالة التعداد هنا للحثّ على تعدّد الأعمال الصالحة، وليس للمقارنة مع الجزاء، والله أعلم.

٢. يلحظ البحث دخول اسم الإشارة (أولئك) في التركيبين، وقد يدلّ ذلك على تشابه فيهما، ولاسيّما من حيث عموميّة العملين من جهة، وعموميّة الجزاءين الحسيين من جهة أخرى، والله أعلم.

٣. يلحظ هنا ذكر فاعل جملة (جاءهم البينات) بصيغة الإفراد، وقد يكون لذلك دلالة أنّ الحق – أي البيّنات – طريقه واحد، وغيره كثر، ومناسبة ذكر هذه الدلالة اختلاف الفريق الآخر وتفرّقهم إلى فرق، والنصّ الكريم ينهى عن ذلك.

ثانيًا . ثنائيّات النّعيم الروحي والعذاب الحسّي

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢٩).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

الفريق الأول			الفريق الآخر		
عملهم	جزاؤهم		عملهم		جزاؤهم
من تبع هداي	لا خوف عليهم	لا هم يحزنون	كفروا	كذّبوا بآياتنا	جملة (أولئك)

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يلحظ صيغة (من تبع) بالإفراد، يقابله صيغة الجمع مع الفريق الآخر، وقد تكون دلالة ذلك شفاعة العبد الصالح لغيره؛ فمن تبع الهدى فيمكن أن يحقق الخير لنفسه ولغيره، وأقرب مصداق لذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)(٣٠)، بمعنى أن العبد يمكن أن يؤجر بعمل غيره، فالذي يعمل شخص واحد، والذي يؤجر أكثر من شخص، وبهذا جاءت صيغة العمل الصالح بالإفراد والجزاء بالجمع، يقابل ذلك عمل الكافرين وجزاؤهم بالجمع، والله أعلم.

٢. جزاء الفريق الأول روحي وجزاء الفريق الآخر حسي، وقد تكمن دلالة ذلك في نوع العمل لكلا الفريقين؛ فالفريق الأول عملهم –إتّباع الهدى– جاء على العموم، لا تفصيل فيه، بينما جاء عمل الفريق الآخر – الكفر والتكذيب– مفصلا. وإذا شئنا الدقّة نعود لسياق سورة طه – السابق الذكر – إذ نجد تماثلا بين العملين، ولكنّهما على العموم؛ فإتّباع الهدى، والإعراض عن الذكر ليس فيهما تفصيل، لذا جاء العملان روحيين، كما بيّنا. لكن السؤال الأهم هنا: ما دلالة الاختلاف بين سياقي السورتين؟.

الذي يبدو للبحث أنّ دلالة ذلك قد تكمن في خصوصيّة توجيه ربّنا عزّ وجلّ لسيّدنا آدم عليه السلام، وتحذيره من الخطيئة، ففي سورة البقرة كان التحذير أخصّ منه في سورة طه؛ إذ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٣١]. وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[٣٢]. وهنا الفرق بيّن بين خصوصيّة التوجيه في سورة البقرة، وعمومه في سورة طه، والله تعالى أعلم.

٣. يلحظ أنّ النص الكريم يذكر للفريق الأول عملا واحدا، ويذكر لهم جزاءين، ويقابل ذلك ذكر عملين للفريق الآخر، وذكر جزاء واحد لهم. وقد يكون لهذه التقسيمات دلالة تتمثل بأنّ عمل الفريق الأول أقلّ من جزاءه، وعمل الفريق الآخر أعظم من جزاءه، بمعنى أنّ المؤمن مهما عمل في الدنيا من الصالحات فإنّ جزاءه أعظم، وأنّ الكافر مهما عوقب بجهنّم فإنّ سوء عمله أعظم، والله أعلم.

٤. يلحظ ذكر اسم الإشارة (أولئك) مع جزاء أصحاب النّار، وعدمه مع جزاء الفريق الأول، وإذا علمنا أنّ (أولئك) للإشارة للبعيد فقد يكون دلالة ذلك للكناية عن بعد هذا الفرق عنه، وقرب الفرق الأول منه سبحانه ، وقد يراد به بعد المشار إليه في الانحدار والانحطاط[٣٣]، والله أعلم.

قال تعالى: (... فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)[٣٤].

أ.م.د. عدي خالد محمود

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

الذين كفروا				الذين آمنوا وعملوا الصالحات			
دخولهم النّار	وصف النّار	وصف العذاب	وصف العذاب	دخولهم الجنّة	وصف الجنّة	وصف النّعيم	وصف النّعيم
دلالة جملة (قطّعت)	**جملتا: (يُصَبُّ) و(يُصْهَرُ)**	**وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**	**لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ**	**جملة (إنّ الله يدخل)**	**جملة (تجري)**	**أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ**	**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يرصد البحث ثنائيّة التصريح بجزاء الفريقين، وتحديدًا جملتي: (قطعت لهم، ويدخل) وقد يدلّ ذلك على حتميّة جزاء أهل النّار بسبب ما كسبت أيديهم، ويقابل ذلك لفظة يدخل، بمعنى أنّه يكرمون الجنّة، ولا يستحقونها، والله أعلم.

٢. ويرصد البحث ثنائيّة وصف الجزاءين، فأهل النّار يصبُّ من فوق رءوسهم الحميمُ، ويُصهرُ بِه مَا في بطونهم والجلود، وفي ذلك صفة لجهنّم ولعذابهم معًا، ويقابل ذلك وصف الجنّة بأنّها تجري من تحتها الأَنهار، وهي صفة للجنّة وحدها، بمعنى حالة تقييد وصف أهل النّار بوصفها، وعدم وجود هذا التقييد مع أهل الجنّة، وقد أشرنا لمثل هذا الأسلوب سابقًا.

٣. من مظاهر العذاب والنّعيم الحسيين ما قيّد في السياق الكريم بحضور معدن في كل طرف، فالحديد حاضر في النّار، والذهب حاضر في الجنّة، وفي هذين التوظيفين دلالتان: الأولى تتمثّل في نوع المعدن، فالذهب معدن ثمين، والحديد ليس كذلك، والدلالة الأخرى في وظيفة هذا المعدن، فالحديد جُعلت منه المقامع، وثمة دلالة أخرى تتمثّل بشدة هذا المعدن، وهو ما يعظم من شدّة العذاب الحسي الصريح، والذهب جُعل منه الأساور، وهي من مظاهر النّعيم الحسي الصريح أيضًا.

٤. ومن مظاهر العذاب والنعم الحسيين أيضًا حضور دلالة اللباس، ففي النّار ثيابهم من نار، وفي الجنّة لباسهم من حرير، وفي ذلك دلالتان: الأولى تتمثّل في الفرق بين دلالتي (الثوب، واللباس) والثوب اسم جامد، واللباس اسم مشتق، ومن هنا تبدأ البينونة؛ فالمقصود في الأولى الثوب نفسه، والمقصود من الأخرى وظيفة الثوب المتمثّلة باللبس، وبهذا يكون توظيف السياق الكريم يعنى بثوب أهل النّار نفسه، فثيابهم (لَهُمْ نِيرَانًا عَلَى مَقَادِيرِ جُثَثِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِمْ كَمَا تُقَطَّعُ الثِّيَابُ الْمَلْبُوسَةُ)[٣٥]، ويقابل ذلك عناية السياق الكريم بوظيفة الثياب – أي اللبس– في سياق

أهل الجنّة؛ فهي من مظاهر النّعيم الحسي، وهذا لا يعني أنّ السياق لا يعنى بالثياب نفسها، بل يعنى بها، ولكن ليس بوساطة لفظة (لباسهم) وإنّما بلفظ (حرير) حيث التصريح بنوع الثياب، والله أعلم.

٥. والدلالة الأخر تتمثّل في ما عُمل منه العنصران، وتحديدًا لفظتي (النّار، والحرير) وذلك كلّ يدلّ على الفرق البيّن بين العذاب والنّعيم الحسيين، والله أعلم.

٦. ولا ننسى الإشارة للعذاب الروحي، وتحديدًا في قوله تعالى: (من غمٍّ) والغم عذاب روحي من جهة، وإشارة واضحة على شدّة العذاب الحسي من جهة أخرى.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٣٦]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٣٧].

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

جزاء الذين كفروا		جزاء الذين يخشون ربّهم	
الجزاء الأول	الجزاء الآخر	الجزاء الأول	الجزاء الآخر
عذاب جهنّم	بئس المصير	مغفرة	أجر كبير

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يرصد البحث تعبيري:(الذين كفروا) بزمن الماضي، و(الذين يخشون) بزمن المضارع، ويمكن أن تكون دلالة هذا التباين أنّ الكفر يتحقق من موقف واحد، بينما لا تتوقف الخشية على موقف ما، وإنّما يتوجّب على العبد أن يواصل خشيته ليحظى بهذه المرتبة.

٢. إذا تركنا مفهومنا لـ (الأجر الكبير) وسلطنا الضوء على النص فحسب نجد دلالته أقرب إلى النّعيم الروحي؛ لأنّ معنى الكبر الذي تشتمل عليه الآية الكريمة يجعلنا نتجاوز المفاهيم الحسيّة للجنان، لتتحقق بالنتيجة دلالة مضادّة لدلالة (بئس المصير)، وإذا قررنا أنّ سوى هذا التركيب –أي قوله (الأجر الكبير)– لا يحقق دلالته فربّما لأنّه يعبّر عن التكاثر المضاعفة في الأجر، والله أعلم.

٣. وظف السياق الكريم دلالة (عذاب جهنّم) لتكون مضادّة لدلالة (المغفرة)، ويمكن أن يدلّ ذلك على علو رتبتها، الأمر الذي يؤكده سياقات كثير من آي الذكر الحكيم، وتحديدًا في مواطن الدعاء بالمغفرة، إذ يبدو في كثير من المواطن أنّه المطلب الرئيس للعبد الذي يناجي ربّه، والله أعلم.

أ.م.د. عدي خالد محمود

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣٨).

ينبغي أولاً الوقوف عند لفظتي: (الحسنة، والسيئة) ليس لأنّهما يشكلان طباقًا، وإنّما لأنّ دلالة كلّ منهما تتسع لتدلّ على عموم عمل المرء، وكأنّ (ال) العهديّة(٣٩) التي اقترنت باللفظتين. أمّا ثنائيّات السياق الكريم فيمن الإشارة إلى اثنتين منها، الأولى تتمثّل في لفظي الجزاء، والأخرى تتمثّل في تناسب الجزاء مع العمل، وعلى وفق ما يأتي:

من جاء بالحسنة		من جاء بالسيّئة	
جزاؤهم	تناسب الجزاء والعمل	جزاؤهم	تناسب الجزاء والعمل
الأمن يوم الفزع	الجزاء خير من العمل	كبّت وجوههم في النّار	دلالة جملة الاستفهام

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. جزاء أهل الجنّة روحي، يتمثّل بالأمن، ويلحظ البحث تقديم دلالة الفزع على الأمن – على غير الأصل– ويمكن أن يدلّ هذا التقديم على تنبيه المتلقي أولا لعظمة هذا الموقف، ثمّ التصريح بأمنهم، وبذلك تتحقق دلالة سياقيّة على عظمة هذا الجزاء. يقابل ذلك التصريح بالجزاء الحسّي، ولكن الإشارة لوجوههم قد تدلّ على الإذلال؛ فالعرب تعبّر بحال الوجه عن كرامة الإنسان عمومًا، وإذا صحّ ما ذهبنا إليه فيكون الجزاء هنا حسيًا وروحيًّا في آنٍ واحد، والله أعلم.

٢. ويلحظ أيضًا أنّ الجزاء الروحي عُبّر عنه بوساطة الاسم، وعُبّر عن الجزاء الحسّي بوساطة الفعل، وثبات الفعل يمكن أن يدلّ على سكينة أهل الجنّة في نعيمهم واستقرارهم فيه، مقابل عدم الاستقرار أهل جهنّم فيها؛ لدلالة الفعل على التحوّل كما ذكرنا. وجدير بالذكر التعبير بوساطة الفعل الماضي عن فعل مستقبلي، ويمكن أن يدلّ ذلك على البتّ وحتميّة الجزاء، فهو أمر مقطوع به(٤٠)، والله أعلم.

٣. يلحظ أيضًا اختلاف التناسب بين الجزاءين؛ فأهل الجنّة يضاعف لهم الأجر، ولا يضاعف جزاء أهل النّار، وفي هذه الدلالتين يقول الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٤١)، وهذه إشارة واضحة على عدله تعالى مع أهل النّار، وكرمه مع أهل الجنّة.

٤. وتجدر الإشارة إلى أسلوبي التناسب بين الجزاءين، ففي سياق أهل الجنّة جاء على الأصل، فهو خبر ابتدائي، على وفق معطيات علم المعاني، يقابل ذلك سياق أهل النّار،

حيث أسلوب الاستفهام الإنكاري، وقد يدلّ هذا الأسلوب على نوع خاص من التوكيد، وإذا صحّ ما ذهبنا إليه فهو بمثابة توكيد مصير أهل النّار، الذي هم به يكذّبون، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٤٢).

يلحظ التصريح في كلا الحالين بالجزاء الروحي: (الخسران المبين، والبشرى) ثم الإشارة للعذاب الحسي فحسب. وقد يكون سبب عدم التصريح بالنّعيم الحسّي أنّ الجزاء بالنسبة لأهل الجنّة بدأ بما هو أسمى فجاء التفصيل في هذا النوع من الجزاء فحسب؛ لئلا ينتقل الحديث من الأسمى إلى من هو أدنى، إذا ما اتفقنا أنّ النّعيم الروحي أسمى وأعلى شانًا من النّعيم الحسّي، والله أعلم.

وصف الخسران (بغاية الفظاعة في قوله أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين)(٤٣)، يقلبا ذلك وصف البشارة بقوله: (لهم البشرى) ويمكن أن تكون دلالة ذلك ما ذكرناه سابقًا أنّ أهل النّار استحقوا النّار بعملهم، وأهل الجنّة لم يستحقوها، وإنّما وِهبوها، والله أعلم.

ثالثًا . ثنائيّات النّعيم الحسّي والعذاب الحسّي والروحي

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(٤٤).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على فئتين، لكل فريق فئة، أمّا فئة الفريق الأول فعلى وفق ما يأتي:

العمل	الجزاء	وصف الجزاء	حالة مكوثهم	تقويم عام للجزاء
من يطع الله ورسوله	جنّات	جملة (تجري)	خالدين	الفوز العظيم

وأمّا فئة الفريق الآخر فعلى وفق ما يأتي:

العمل الأول	العمل الآخر	الجزاء الحسي	الجزاء الروحي	حالة مكوثهم
من يعص الله ورسوله	يتعدّ حدوده	نار	عذاب مهين	خالد

أ.م.د. عدي خالد محمود

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يتضح الاختلاف في بناء تركيبي النصّ الكريم، ففي حال إطاعة الله ورسوله يكون الجزاء جنّات (بصيغة الجمع) ووصف هذه الجنّات بجريان الأنهار من تحتها، وتقويم عام لهذا الجزاء. أمّا دلالة توزيع هذه الدلالات فيمكن أن يكون مفتاحه بقوله تعالى: (تلك حدود الله) في صدر الآية الكريمة؛ إشارة إلى تعاليمه تعالى في الميراث، في الآية السابقة، وهي تعاليم حسيّة صرّفة، الأمر الذي يناسبه الجزاء الحسي، كما في المخطط أعلاه، والله أعلم.

٢. يقابل ذلك الحالة الأخرى – حالة العصيان– وتوزيع دلالاتها على عملين من جهة، وجزاءين من جهة أخرى، وقد يدلّ ذلك التوزيع على عدله تعالى في حساب من عصاه، وقد يكون جزاء النّار لذنب المعصية، ويكون العذاب المهين عقوبة تعدي حدوده سبحانه؛ لأنّ (العقوبة من جنس العمل) فتعدي حدود الله يتضمن الكبر والطغيان، وعقوبة ذلك العذاب المهين، والله أعلم.

٣. أمّا حالة مكوث الطرفين في مأوى كلّ منهما، ووصفها بالخلود فيمكن رصد ظاهرة أسلوبيّة مهمّة، تتمثل بإسناد الحالة الأولى لصيغة الجمع، وإسناد الأخرى لصيغة الإفراد، وقد تكون دلالة ذلك الشفاعة لأهل الجنّة، وعدمها لأهل النّار؛ فإذا قلنا بمبدأ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فهذا من عدله تعالى، ولا ينسحب هذا المبدأ على الطرف الآخر، فالحسنة لا تختصّ بفاعلها فحسب، وإنّما يمكن أن يثاب غيره بها، فرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول: (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ)[٤٥]، فالولد الصالح يمكن أن يتسبب بزيادة أجر والده. وكذلك الحال في درجات الجنان؛ إذ يقول تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾[٤٦]، أي يلحق بهم من صلح من أهلهم إكرامًا لهم، وسيأتي الحديث عن معنى الشفاعة التي تتضمنّه هذه الآية إن شاء الله لاحقًا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ إِنَّ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤٧).

عموم النص الكريم يتحدّث عن فريق من أهل النّار، ويمكن تقسيم دلالاته علىّ هذه المحاور:

أعمالهم	**جملة (من أظلم)**	**جملة (الذين يصدون)**	**جملة (يبغونها)**	**جملة (هم كافرون)**	**الظالمين**
وصف أعمالهم	**جملة (من أظلم)**	**جملتا (ما كانوا)**	**جملة (لم يكونوا)**	**جملة (ما كان لهم)**	
عاقبة أعمالهم (في الدنيا)	**جملة (خسروا)**	**جملة (ضل عنهم)**			
جزاؤهم (في الآخرة)	**جملة (يعرضون)**	**جملة (يقول الأشهاد)**	**جملة (ألا لعنة الله)**	**جملة (يضاعف)**	**جملة (هم الأخسرون)**

وللوقوف على خصوصيّة هذه التراكيب نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يلحظ التركيب العجيب للنص الكريم؛ إذ امتزاج دلالات المحاور، التي أشير لها في المخطط أعلاه، وقد يدلّ هذا الامتزاج على تشابه هذه المحاور من حيث شدّة السوء، بمعنى سوء العاقبة لهم تشابهه أعمالهم، بما في ذلك صفات هذه الأعمال، والله أعلم.

٢. يلحظ أنّ الجزاء في الآخرة أعظم من العاقبة في الدنيا – بحكم تعدد مظاهر جزاء الآخرة – وهو شكل صريح من أشكال الوعيد.

٣. يلحظ أنّ جملة الجزاء من قبيل العذاب الروحي، باستثناء جملة (يضاعف لهم العذاب) التي تشتمل على العذابين الحسي والروحي. ومن المناسب هنا الإشارة إلى أنّه قد يُظن أن دلالة (مضاعفة العذاب) تقابل (مضاعفة الأجر) ممّا يفتح الباب لمراجعة مسألة عدله تعالى مع أصحاب النّار، لذا نقول ومن الله التوفيق والسداد: إنّ مضاعفة العذاب هي من جنس العذاب نفسه، إي إنّهم استحقوا المضاعفة؛ لما كسبت أيديهم من سوء الأعمال، والله أعلم

٤. كما يلحظ التصوير الدقيق لعذابهم الروحي؛ الذي تقرّبه للأذهان قوانين الدنيا ومظاهرها، ومن هذه المظاهر عرضهم – المستمر– على ربّهم وهم مذنبون، وهو شعور مخز لصاحبه، وكذلك تذكيرهم – المستمر أيضًا– من الأشهاد بأنّ لعنة الله عليهم، الأمر الذي يعظم

درجة الخزي والذلّ الذي هم فيه، والله أعلم. يقابل ذلك كلّه عرض – سريع نسبيًّا – لثلاثة أعمال لأهل الجنّة، وهذه الأعمال هي: آمنوا، وعملوا الصالحات، وأخبتوا لربّهم، ثم ذكر جزائهم وهو الجنّة وخلودهم فيها.

٥. ثم الخلاص إلى موازنة صريحة بين الفريقين، بوساطة أسلوب الاستفهام الإنكاري[٤٨]، الذي يدلّ على إنكار وجه الموازنة بينهما.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّار وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[٤٩].

ويمكن رصد ثنائيّتين، الأولى تتمثّل في تركيبي: (من ثقلت موازينه، ومن خفّت موازينه)، والأخرى تتمثّل في تركيبي: (أولئك هم المفلحون، أولئك الذين خسروا أنفسهم).

أمّا الثنائيّة الأولى فقد سبقت الإشارة لنظيرتها سابقًا. وأمّا الثنائيّة الأخرى فقوامها الفلاح والخسارة، وهي لا تخرج عن دائرة طباق الإيجاب، ولكن الملحوظ هنا ورود الفلاح بصيغة الاسم، وورود الخسارة بصيغة الفعل، ويمكن أن يدلّ ذلك على استقرار أهل الجنّة بنعيمهم؛ لأنّ الاسم دالّ على الثبات، كما ذكرنا. يقابل ذلك عدم استقرار أهل النّار في عذابهم؛ فهم من سوء إلى أسوأ منه، بدليل قوله: تلفح وجوههم النّار، وكانّ في ذلك تصوير لتحول أهل النّار من سوء إلى ما هو أسوء، والله أعلم.

إذا اكتفينا بالمخطط أعلاه – وتحديدًا معنيي الفلاح والخسارة – نكون قد أدركنا النعم والعذاب الروحيين. ولكن النصّ الكريم يذكر لنا ثلاث صفات، تمثّل العذاب الجسدي لأهل النّار، وهي: في جهنّم خالدون، وتلفح وجوههم النّار، وهم فيها كالحون.

في هذه الصفات الثلاث تصوير دقيق للعذاب، وبصياغات مختلفة: أمّا الأولى والثالث فبواسطة الجملة الاسمية، وأمّا الثاني فبوساطة الجملة الفعليّة، ويرى البحث في ذلك عناية خاصّةً بوصفهم؛ فتارة بالاسم وأخرى بالفعل، وبهذا تتحقق الدلالتان في سياق واحد.

ويلحظ أيضًا اختلاف آخر، وتحديدًا في تركيب الجملتين الاسميّتين، فالأولى يوظّف الظرف فيها – أي "في جهنّم" – ليكون عمدة في الكلام؛ لأنّه في محل رفع خبر، وأمّا الثالث فيوظّف الظرف – أي "فيها" – ليكون فضلة، ويرى البحث في ذلك اهتمامًا خاصّا بمأواهم الذي، عبّر عنه ذلك الظرف.

يبقى أن نذّكر بتفصيل القول بصفات الذين خسروا أنفسهم، وذكر عذابهم على شكليه الروحي والجسدي، في حين الاكتفاء بذكر صفة واحدة لسواهم، وتحديدًا بقوله (المفلحون)، بذلك يبدوا التباين بين سورتي المؤمنون والحاقة – على الرغم من اشتراكهما بذكر الثنائيّة الأولى – ويرى البحث سبب هذا التباين أنّ في سورة المؤمنون تفصيلاً دقيقًا لحال الذين خسروا أنفسهم، في دنياهم وأخراهم، وبهذا كان من المناسب التفصيل في مأواهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٥٠).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

الفريق الأول					الفريق الآخر		
أعمالهم			جزاؤهم		عملاهم		جزاؤهم
جملة (يشري)	جملة (يتّخذها)	جملة (إذا تتلى)	عذاب مهين	عذاب أليم	آمنوا	عملوا الصالحات	جنّات النّعيم

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يلحظ تخصيص أعمال الفريق الأول، واشتمالها على العناد والاستكبار وما هو واضح في المخطط أعلاه، لذا جاء الجزاء على قسميه الحسي والروحي.

٢. يقابل ذلك عملا الفريق الآخر، ولكن بصورتيهما العامّة، من غير التفصيل فيهما، لذا جاء الجزاء بصورته الحسيّه فحسب، والله أعلم.

رابعًا . ثنائيّات النّعيم الحسي والروحي والعذاب الحسّي

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٥١)

في كلّ آية من هذه الآيات الثلاث صنف خاص من العباد: أمّا الآية الأولى فتتحدّث عن الذين حازوا السبق في الإسلام، وحظوا بتزكيته تعالى، وأمّا الآية الثانية تتحدّث عن المنافقين، وأمّا الآية الثالثة فتتحدّث عن المذنبين من المسلمين، ويمكن نلحظ ما يأتي:

أ.م.د. عدي خالد محمود

محاور دلالات الآية الأولى:

درجة التصنيف	أصحاب هذا التصنيف	جزاؤهم الروحي	جزاؤهم الحسي	صفات جزاؤهم الحسي	تقويم عام للجزاءين
السابقون الأولون	المهاجرين، والأنصار، ومن اتبعهم بإحسان	رضي الله عنهم ورضوا عنه	جنات	جملة (تجري) وجملة (خالدين)	الفوز العظيم

محاور دلالات الآية الثانية:

درجة التصنيف	**أصحاب هذا التصنيف**	**صفتهم**	**عملهم**	**جزاؤهم الحسي**	**صفة جزاءهم الذي يردّون إليه**
منافقون	**ثلة من الأعراب، وثلة من أهل المدينة**	**لا تعلمهم، نحن نعلمهم**	**مردوا على النفاق**	**يعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب**	**عظيم**

محاور دلالات الآية الثالثة:

أصحاب هذا التصنيف	صفتهم	عملهم	جزاؤهم الروحي	بشارة المغفرة
آخرون	اعترفوا بذنوبهم	خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا	عسى الله أن يتوب عليهم	إنّ الله غفور رحيم

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يلحظ خلوّ الآية الأولى من ذكر عمل أصحابها، وهذه الظاهرة – حسب ما يرى البحث– بمثابة تزكية واضحة لهم. وكذلك خلوّها من وصف أصحابها مقارنة مع الآيتين الأخيرتين– حسب المخطط– وهذا يدلّ تزكية أخرى لهم، والله أعلم.

٢. يلحظ تسمية درجة السابقين، ودرجة المنافقين، وعدم تسمية درجة (الآخرين) – على وفق ما ورد في النصّ الكريم– وقد تكون دلالة ذلك حتميّة المصير للأولى والثانية، وعدمه للثالثة، بمعنى أنّ الله تعالى بشّر السابقين بالجنّة في الدنيا، وأوعد المنافقين النّار، ولم يلق الفريق الثالث شيئًا من ذلك، ليبقى رجاؤهم برحمته تعالى إلى يوم الحساب.

٣. وممّا يُطمئن (الآخرين)، ويُرجّح كفّة حسن رجائهم بربّهم ما ختمت به آيتهم؛ فهي بمثابة بشارة برحمته تعالى لهم، وأنّهم للمغفرة أقرب، والله أعلم. يقابل ذلك حتميّة الطرفين الآخرين، وهنا تبدو صورة لثنائيّة: (الفوز العظيم، العذاب العظيم).

٤. خُصّ السابقون بنوعين من النّعيم: حسّي وروحي، وخُصّ المنافقون بالعذاب الحسّي، وخُصّ (الآخرون) بالنّعيم الروحي ، وقد يدلّ على علوّ منزلة السابقين رضوان الله عنهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّار بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٥٢).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على فئتين، لكل فريق فئة، أمّا فئة الفريق الأول فعلى وفق ما يأتي:

أعمالهم				جزاؤهم
لا يرجون لقاءنا	رضوا بالحياة الدنيا	اطمأنوا بها	عن آياتنا غافلون	النّار

وأمّا فئة الفريق الآخر فعلى وفق ما يأتي:

عملهم		جزاؤهم				
آمنوا	عملوا الصالحات	جنّات، مع وصفها بجملة (تجري)	يهديهم ربّهم	جملة (دعواهم)	جملة (تحيّتهم)	جملة (آخر دعواهم)

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. تبدو أعمال الفريق الأول المتعدّدة من جهة، ومصيرهم الواحد من جهة أخرى، ويمكن أن يدلّ ذلك على توكيد استحقاقهم لمأواهم، وأنّ الله تعالى ما كان ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

٢. يقابل ذلك الفريق الآخر، إذ لهم عملان ، وتعدّد جزائهم، وهذا بلا شكّ يدلّ على كرمه تعالى في رحمته وجزائه العظيمين.

٣. من المخطط أعلاه ومن النصّ الكريم تبدو الموازنة بين تعدّد أعمال الفريق الأول وتعدّد جزاء الفريق الآخر، الأمر الذي ينبّه على الموازنة بين جزاء الفريق الأول (الأوحد) وعملي الفريق الآخر – كما هو واضح في المخطط أعلاه – وبهذا يمكن أن يدلّ هذا التركيب على وحدة عملي الإيمان والعمل الصالح، بمعنى أنّهما عمل واحد؛ لعدم جدوى أيّ منهما دون الآخر، والله أعلم.

أ.م.د. عدي خالد محمود

٤. أمّا جزاء الفريقين فواضح أنّ الفريق الأول جزاؤهم حسي فقط، وجزاء الآخر مقسوم على حسي وروحي. ويمكن أن يكون عمل الفريق الأول مفتاح الدلالة في ذلك؛ فكلّ أعمالهم سببها فتنة الدنيا بمفهومها الحسي، لذا جاءت عقوبتهم بالمفهوم الحسي نفسه، يقابل ذلك عموم أعمال الفريق الآخر، التي يمكن أن تشتمل على شتى أنواع العبادات، فضلا عن كرم ربّنا بجزائه العظيم، الذي يفوق عمل عباده، كما قلنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(٥٣).

في هذا السياق الكريم يمكن رصد عدد من الثنائيّات، وعلى وفق ما يأتي:

١. يلحظ البحث تسميتي (الغاوين، والمتّقين) اللتين تمثلان عموم عمل الفريقين.

٢. يرصد البحث ثنائيّة التصريح بجزاء الفريقين، وتحديدًا في جملتي: (إنّ جهنّم، وإنّ المتّقين) ولهذه الثنائيّة خصوصيّة تركيبيّة، تتمثل بوقوع (جهنّم) اسمًا لـ (إنّ)، يقابل ذلك وقوع (جنّات) في شبه الجملة، الواقعة في خبر إنّ. والفرق في دلالة اسم إنّ وخبره يعني الفرق بالتعريف على أقل تقدير، وبهذا يمكن أنّ يدلّ هذا الأسلوب على أنّ الغاوين منكرون قياسًا بجهنّم، فهي أكثر تعريفًا منهم، والمتقون معرّفون قياسًا بالجنّات، فهم أعرف منها، وهذا مظهر من مظاهر البون بين الفريقين، دلّ عليه التركيب الخاص لهذه الثنائيّة، والله أعلم.

٣. ويلحظ جملة من مظاهر النّعيم الروحي، التي تفسرها لنا قوانين الدنيا، ولا يقابل عند الفريق الآخر مثل هذه المظاهر، وقد يكون في السياق دلالة ذلك؛ فهو موجّه بالأساس للمتقين بقوله تعالى مخاطبًا إبليس: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

٤. يلحظ البحث أيضًا الإشارة إلى أبواب جهنّم وهذا يعني أنّه تعالى (يَجْعَلُهُمْ أَقْسَامًا وَفِرَقًا، وَيُدْخِلُ فِي كُلِّ قِسْمٍ مِنْ أَقْسَامِ جَهَنَّمَ طَائِفَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّ مَرَاتِبَ الْكُفْرِ مُخْتَلِفَةٌ بِالْغِلَظِ وَالْخِفَّةِ، فَلَا جَرَمَ صَارَتْ مَرَاتِبُ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ مُخْتَلِفَةً بِالْغِلَظِ والخفة)(٥٤)، يقابل ذلك عدم الإشارة إلى أبواب الجنّة، وقد يدلّ هذا الأسلوب على عدله تعالى مع أهل النّار، وكرمه مع أهل الجنّة؛ بمعنى أنّ الغاوين يدخلون جهنّم بحسب ما استحقوا من العذاب، وبهذا يتحقق العدل معهم. أمّا المتّقون الذين يدخلون الجنّة فلا يُشار في النصّ الكريم إلى درجاتهم – التي لا يستحقونها بأعمالهم أصلاً– وهذا يمكن أن يكون كناية عن كرمه، من حيث أمل أهلها بها

عمومًا، وذكر الدرجات يصرف دلالة هذا الأمل، وهذا التأويل قد يفسّر لنا الفرق في تركيبي سورة الزمر، وتحديدًا في أمر كلّ من أهل جهنّم وأهل الجنّة بدخولهما، إذ يقول تعالى: في أهل جهنّم ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾(٥٥) وقال في أهل الجنّة: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(٥٦) مع أنّ السياق الكريم يذكر أنّ لكلّ من جهنّم والجنّة أبوابًا، بمعنى تغييب درجات الجنّة؛ ليأمل أهلها بها عمومًا كرمًا منه، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(٥٧).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على فئتين، الأولى تخصّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وعلى وفق ما يأتي:

جزاؤهم	حالة مكوثهم	الحكم في تقويمهم
نار جهنّم	خالدين فيها	هم شرّ البريّة

وأمّا الفئة الأخرى فتخصّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكما يأتي:

جزاؤهم الحسي	صفة الجزاء	حالة مكوثهم	جزاءهم الروحي	الحكم في تقويمهم
جنّات عدن	تجري من تحتها الأنهار	خالدين فيها أبدًا	رضي الله عنهم ورضوا عنه	هم خير البريّة

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. يلحظ ذكر النّار والجنّة، ولكن لذكر الجنّة ثلاث خصائص: الأولى ذكر الجنّة بصيغة الجمع، في حين ذكر النّار بصيغة الإفراد، والثانية وصف الجنّة بأنّها تجري من تحتها الأنهار، وعدم وصف النّار، والثالثة تأبيد الخلود بالجنّة وعدمه في النّار، وكلّ هذه العناصر تؤكد الزيادة بالنّعيم(٥٨).

٢. يرصد البحث كلاً من النّعيم والعذاب الحسيين، ويلحظ تمتع الذين آمنوا بجزاء روحي ليس له مثيل، وهو الرضا منه تعالى وعنه، الأمر الذي يدلّ على عظمة مكانة هذه الطائفة من عبيده، الأمر الذي يؤكده ما ختمت به السورة الكريمة، وتحديدًا قوله تعالى: (ذلك لمن خشي ربّه) بمعنى أنّ خشيته تمهد لهذه المنزلة العظيمة. و(الخشية ملاك الأمر والباعث على كلّ خير)(٥٩).

٣. يلحظ تسلسل ذكر عناصر المخطط في النص الكريم على وفق المنزلة، وتحديدًا البدء من السوء، والانتهاء بالمنزلة الكريمة، وعلى وفق ما يأتي:

(الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ثمّ (نار جهنّم) ثمّ (الخلود في جهنّم) ثمّ (شرّ البريّة) ثمّ (آمنوا وعملوا الصالحات) ثمّ (خير البريّة) ثمّ (جنّات عدن) ثمّ (الخلود في الجنّة أبدًا) ثمّ (رضي الله عنهم ورضوا عنه الذين).

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾(٦٠).

سياق الآية الكريمة يقوم أساسًا على الموازنة بين الجزاءين، ويمكن أن نلحظ ما يأتي:

١. تعدّد مظاهر النّعيم الحسي، من حيث ذكر أربعة أنواع من أشربة الجنّة (الماء، واللبن، والخمر، والعسل) وقد يكون ترتيب ذكر هذه الأشربة تبعًا لندرتها في الدنيا، بمعنى التدرج من الأدنى إلى الأعلى، يقابل ذلك شراب أهل النّار(الماء الحميم)، وتعدّد أنواع شراب الجنّة – قياسًا بشراب أهل النّار – يدلّ على رحمته وكرمه تعالى.

٢. يصرّح السياق الكريم لكلّ شراب ممّا ذُكر بصفة مخالفة لصفاته في الدنيا، وقد تكون في ذلك كلّه دلالة سياقيّة تصرف المتلقي عن مفاهيم الحياة الدنيا لهذه الأشربة.

٣. التصريح بزمن الماضي (سُقوا) لفعل مستقبلي، وذكرنا سابقًا أنّ في ذلك دلالة البتّ في حدوث الفعل، وحتميته، يقابل ذلك لفظي (فيها، ولهم فيها)، وقد أشرنا لدلالة ذلك سابقًا.

٤. تعدّد أنواع شراب أهل الجنّة تتبعه إشارة صريحة لطعامهم، (من كلّ الثمرات) هذا من جانب، والإشارة إلى مظهر من مظاهر النّعيم الروحي (المغفرة) من جانب آخر، وبهذا يبدو الفرق كبيرًا بين مظاهر كلا الجزاءين.

خامسًا . ثنائيّات النّعيم الحسّي والروحي والعذاب الحسّي والروحي

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٦١).

يمكن توزيع دلالات النص الكريم على وفق ما يأتي:

أصحاب الجنّة هم فيها خالدون	أصحاب النّار هم فيها خالدون

عملهم	جزاؤهم	مظهري النّعيم الروحي		عملهم	جزاؤهم	مظهري العذاب الروحي	
أحسنوا	الحسنى وزيادة	لا يرهق وجوههم قتر	ولا ذلة	كسبوا السيئات	جزاء سيئة بمثلها	جملة (كأنّما أغشيت)	ترهقهم ذلة

ويمكن أن نلحظ على هذا المخطط ما يأتي:

١. بناء النصّ الكريم على الثنائيّات في الأعمّ الأغلب، ومن هذا الثنائيّات ما جاء على شاكلة الطباق الإيجابي، ومنه (الجنّة، والنّار)، والطباق السلبي، ومنه (ولا ذلة، وذلة)، والطباق الذي يحدد دلالة طرفيه السياق حصرًا، ومنه (لا يرهق وجوههم قتر، وجملة "كأنّما أغشيت").

٢. ومن مظاهر الثنائيّات في هذا النصّ ما نرصده في حقلي الجزاء الحسيين (الحسنى، والسيئة) ويلحظ اتساع الحقل الدلالي لكلّ منهما، وهي صفة تنطبق على الدلالتين معًا، ولكن ثمّة ما يختلفان فيه من جهة الدلالة، وتحديدًا حجم الجزاء؛ فهو في النّعيم بزيادة، وفي عذاب بمثل العمل، وقد أشرنا لما يدلّ عليه هذا الأسلوب من رحمته تعالى مع أصحاب الجنّة، وعدله مع أصحاب النّار، والله أعلم.

٣. يلحظ أيضًا اختلاف التعبير عن العمل؛ فهو ليس على شاكلة الطباق الصريح، فلفظة (أحسنوا) لم تقابلها لفظة (أساءوا)، فالإحسان يمكن أن يدلّ على عموم العمل الصالح، كما يمكن أن يدلّ كسب السيئات على خصوص العمل غير الصالح، العموم الذي تشمل دلالته أشكال الإحسان على اختلافها وأحجامها، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٦٢). يقابل ذلك خصوص العمل غير الصالح، وكأنّ في ذلك حصر الأعمال التي توجب دخول النّار، والعموم والخصوص –على هذا النحو– يمكن أن يكون دليلًا آخر على رحمته تعالى؛ إذ دخول الجنّة من لا يستحقها، ودخول النّار من يستحقها، كما فصلنا القول في ذلك سابقًا، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(٦٣)، وبعد بضع آيات يقول تعالى أيضًا: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(٦٤).

ما يفصل بين النصين خمس آيات فقط لذا آثرنا دراستهما معًا، ففي النصّين حضور رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بوصفه نذير مبين، وحضور الذات الإلهية بوصفه الملك الذي يحكم بين عباده، وحضور الناس في النصّين، ولكن حضورهم صراحة مع ذكر رسولنا صلى الله

عليه وسلم، وحضورهم بوساطة الضمير مع ذكر الذات الإلهية، وهذا يناسب ذكره جلّ جلاله. هذه معطيات مقدمتي النصّين، ثمّ تقسيم الناس على فريقين في كلا النصين، وعلى وفق ما يأتي:

الفريق الأول:

عملهم		جزاؤهم		
آمنوا	عملوا الصالحات	مغفرة	أجر كريم	جنّات النّعيم

الفريق الآخر:

عملهم			جزاؤهم	
في آياتنا معجزين	كفروا	كذبوا بآياتنا	عذاب مهين	أصحاب الجحيم

ويمكن أن نلحظ على هذا المخطط ما يأتي:

١. تقسيم عمل الفريق الأول على عنصرين، وتقسيم جزاءهم على ثلاثة عناصر. بخلاف الفريق الآخر، إذ تقسيم عملهم على ثلاثة عناصر، وتقسيم جزاءهم على عنصرين. وقد يكون لهذه التقسيمات دلالة تتمثل بأنّ عمل الفريق الأول أقلّ من جزائه، وعمل الفريق الآخر أعظم من جزائه، وقد أشرنا لهذه الدلالة سابقًا.

٢. يمكن أن نقرن كلّ عنصرين على جنب؛ بغية رصد جملة من الثنائيّات، وهي: (آمنوا، وكفروا) و(أجر، وعذاب) و(كريم، مهين) يبدو طباق الإيجاب واضحًا جدًا في هذه الألفاظ. أمّا في تركيبي (عملوا الصالحات، وفي آيتي معجزين و كذّبوا بآياتنا)، فيمكن أنّ يقابل العمل الصالح تكذيب الكافرين بآياته تعالى، وسيرهم في الأرض معجزين، وبذلك يتحقق الطباق. وأمّا في تركيبي (جنّات النّعيم، أصحاب الجحيم) فلا يذهب البحث إلى إفراد هذه الألفاظ كما أفردنا تركيبي (أجر كريم، وعذاب مهين)؛ لأنّ هذين التركيبين طباقان لا طباق واحد، أمّا لفظتي (النّعيم، والجحيم) فليس لهما الاستقلال بالدلالة؛ لأنّ الطباق بين الجنّات من جهة، وأصحاب النّار من جهة أخرى، وبذلك تتحقق أبعد المسافات بين طرفي الطباق؛ لأنّ أصحاب الجحيم أسوء مكانة من الجحيم نفسها – كما تقدّم– والله أعلم.

٣. من الملحوظ أنّ عنصر (المغفرة) لا يدخل صور الثنائيّات مطلقًا؛ لعدم وجود معنًى يناقضه، وهو (الظلم)، فلا وجود لأي إشارة لهذا المعنى في عموم النصّين أعلاه. ويرى

البحث أن انفراد لفظ المغفرة من غير نقيض – على هذه الشاكلة– يعني عظمة رحمته تعالى، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٦٥]

يمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

	أعمالهم			جزاؤهم	
الفريق الأول	جملة (الذين يوفون)	جملة (لا ينقضون)	جملة (يصلون)	سلام عليكم	عقبى الدار
الفريق الآخر	جملة (الذين ينقضون)	شبه جملة (من بعد ميثاقه)	جملة (يقطعون)	لهم اللعنة	سوء الدار

في هذا المخطط تبدو أطراف الثنائيّات بوضوح، ومنها ما يمثّل طباقًا صريحًا، ومنها يمثّل طباقًا مؤوّلاً، فالصرح نحو (يوفون، ينقضون)، المؤول نحو (السلام، واللعنة).

ثمّة أعمال أخرى للفريق الأول، لم تذكر في المخطط، وكذلك الجزاء، وهي فيما يأتي:

الأعمال الأخرى						جزاؤهم	
جملة (يخشون)	جملة (يخافون)	جملة (صبروا)	جملة (أقاموا)	جملة (أنفقوا)	جملة (يدرءون)	جنات عدن	جملة (يدخلون)

وللوقوف على خصوصيّة هذه الدلالات نذكر ما يأتي:

١. يلحظ تعدّد الأعمال، وذكر جزاء حسّي وآخر روحي على وفق ما ذكرنا في هذا المخطط، ويمكن أن تدلّ كثرة هذه الأعمال على عظمة الجزاء، ولاسيّما الروحي، وهنا يمكن استحضار قول الإمام البيضاوي في تفسير معنى هذا الجزاء (أنّه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم؛ تبعًا لهم وتعظيمًا لشأنهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض؛ لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنّة زيادة في أنسهم)[٦٦]، وهذا بلا شك تكريم وتشريف عظيمان لهم.

٢. يلحظ أيضًا اختلاف زمن الفعل في هذه الأعمال، فـ (يخشون، ويخافون، ويدرءون) بزمن المضارع، و(صبروا، أقاموا، وأنفقوا) بزمن الماضي. وذكرنا سابقًا أنّ الفعل يدلّ على التجدّد والاسم يدلّ على الثبوت، وبهذا يمكن أن تدلّ هذا الأعمال على مدى ملازمة العبد لها، فالصبر والصلاة والزكاة لها أزمنة معلومة، أمّا (الخشية منه تعالى، والخوف من عذابه، ودفع السيئة بالحسنة) فهي أعمال ملازمة للعبد؛ وينبغي أن يزاولها كلّ الأوقات، فهي بمثابة سلوك متأصل عنده، وليست أعمال يفعلها في وقت ويتركها وقت آخر كما الصلاة والزكاة، والله أعلم.

٣. يذكر السياق الكريم الخشية والخوف، و(الْخَوْف يتَعَلَّق بالمكروه ... والخشية تتَعَلَّق بمنزل الْمَكْرُوه وَلَا يُسمى الْخَوْف من نفس الْمَكْرُوه خشيَة وَلِهَذَا قَالَ (ويخشون رَبهم وَيَخَافُونَ سوء الْحساب)[٦٧]، بمعنى أنّ عباد الله يكرهون عذاب الله فيخافونه، ويحبّون الله ويخشونه، وتوظيف النصّ الكريم لهذين الفعلين بمثابة مدح لخُلق هؤلاء العباد، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٦٨]، وفي السياق نفسه يقول أيضًا: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٦٩].

ويمكن رصد الدلالات المشتركة بين الفريقين، وعلى وفق ما يأتي:

	قالوا	الإشارة للسلام	تتوفاهم الملائكة	دلالة الدخول	الجزاء الذي يدخلون	تقويم عام لجزائهم
الفريق الأول	أساطير الأولين	فالقوا السلم	ظالمي أنفسهم	فادخلوا	أبواب جهنّم خالدين فيها	فلبئس مثوى المتكبّرين
الفريق الآخر	خيرًا	يقولون سلام عليكم	طيّبين	يدخلونها	جنّات عدن	لنعم دار المتقين

وبهذا تتبين لنا جملة كبيرة من الثنائيّات، نذكر منها ما يأتي:

١. نتعرض لطرفي الثنائيّة الأولى، وتحديدًا في دلالتي: (أساطير الأولين، وخير)، وتجدر الإشارة لاختلاف الإعراب فيهما، فقول الفريق الأول مرفوع على الابتداء، وقول الفريق

الآخر منصوب على المفعوليّة، ويمكن أن تكون دلالة هذا الاختلاف (فصلا بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال، فقالوا خيراً: أي أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء)[٧٠]، وفي ذلك كلّه كناية بيّنة عن كذب الفريق الأول، وصدق الفريق الآخر، والله أعلم.

٢. ويمكن الوقوف عند فاعل من ألقى السلام، فالفريق الأول هم الذين ألقوه، والفريق الآخر قد ألقته الملائكة عليهم، وهنا يبدو الفرق بين هيبة الطرفين، وممّا يعزز هذا الهيبة أنّ الفريق الأول يتكلم ويدافع عن نفسه –كذبًا– ويجابه بقول الملائكة إنّ الله عليم بما كانوا يعلمون، وهنا كناية عن عدم الإصغاء إليهم، يقابل ذلك صمت الفريق الأخر، وهنا يمكن أن نستأنس بمظاهر الدنيا لإدراك الفرق بين حال الفريقين، فلو افترضنا أنّ ملكًا أرسل لشخص من رعيته، فلو كان مذنبًا لبدأ هو بالسلام والدفاع عن نفسه كذبًا، ويجابه بعدم الاهتمام، ولو كان الشخص على قدر عالٍ نجد الرسل المكلفة باستدعائه هم من يبدؤون السلام. وبهذا يمكن أن يدلّ الحوار الحاد بين الفريق الأول والملائكة كناية عن الإهانة، ويمكن أنّ يدلّ الصمت بين الفريق الآخر والملائكة أنّه نوع من الوقار، ومن ثمّ فهو نوع من الاحترام.

٣. يلحظ ورود (جهنّم) بصيغة الإفراد، وورود (جنّات عدن) بصيغة الجمع، وقد ذكرنا سابقًا أنّ هذا الأسلوب يدلّ على عدله تعالى مع أهل النّار، وكرمه مع أهل الجنّة.

٤. وثمّة اختلاف آخر بجهة الفاعل، وتحديدًا بفاعل (دخل) فالفريق الأول يؤمرون بالدخول، والفريق الآخر يسند فاعل الدخول لهم، وهنا كناية عن علو شأنهم، والله أعلم.

٥. أمّا ذكر أَبْوَابَ جَهَنَّمَ فـ (هَذَا يَدُلُّ عَلَى تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ فِي الْعِقَابِ، فَيَكُونُ عِقَابُ بَعْضِهِمْ أَعْظَمَ مِنْ عِقَابِ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا صَرَّحَ تَعَالَى بِذِكْرِ الْخُلُودِ لِيَكُونَ الْغَمُّ وَالْحَزَنُ أَعْظَمَ)[٧١]، يقابل ذلك عدم الإشارة إلى مراتب الجنّة، وقد يدلّ هذا الأسلوب أيضًا على عدله تعالى مع أهل النّار، وكرمه مع أهل الجنّة، وقد أشرنا لدلالة هذه الثنائيّة سابقًا.

٦. يلحظ أيضًا توظيف لفظتي (مثوى، ودار) فالمثوى يشتمل على دلالة العقاب والاستحقاق معًا، والدار تشتمل على ما يدور حول ساكنه، ومن ثمّ فهو كناية عن السكن الكريم، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ

أ.م.د. عدي خالد محمود

عُقْبَى الدَّارِ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾(٧٢).

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

	أعمالهم			جزاؤهم		
الفريق الأول	جملة (صبروا)	جملة (أقاموا)	جملة (أنفقوا)	جملة (يدرءون)	جملة (جنّات)	جملة (يدخلون)	لهم عقبى الدار
الفريق الآخر	جملة (ينقضون)	جملة (يقطعون)	جملة (يفسدون)			عليهم اللعنة	لهم سوء الدار

وللوقوف على خصوصيّة التركيبين نذكر من الاختلافات ما يأتي:

١. التماثل العام في تركيبي النصّ الكريم، إذ ذكر جملة من الأعمال لكلا الفريقين، على وجه التفصيل، ومن ثمّ التفصيل أيضًا في بيان جزائهم، على شكليه الروحي والحسي.

٢. إذا تأمّلنا ثنائيّة أعمال أهل النّار نجد أنّ بناءها يقوم على معنى الطباق، فلفظتا (ينقضون، ميثاقه) تحققان الطباق؛ لأنّ دلالة الميثاق هنا لا تقترب من الاسميّة –إذا صحّت التسمية– فـ(مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف)(٧٣). ونجد الطباق أيضًا في لفظتي (يقطعون، ويُوصل). وهنا يرصد البحث نوعًا من الاختلاف في كلّ من الطباقين: فالطباق الأول يتضمّن الجمع بين الاسميّة والفعليّة، والآخر يتضمّن الجمع بين بنائي المعلوم والمجهول، وهنا يمكن قراءة العمل الثالث لهم على وفق ما رصدنا، بمعنى أنّه قائم على الطباق من جهة، وأنّه يشتمل على اختلاف ما من جهة أخرى، وبهذا يمكن أن يكون تأويل ما ذهبنا إليه: ويفسدون في الأرض من بعد إصلاحها، أو من بعد ما أُصلحت، والله أعلم.

٣. يلحظ أنّ التفصيل في ذكر أعمال أهل الجنّة أوسع منه في ذكر أهل النّار، وكذلك الحال في ذكر جزاءهم، ولاسيّما في ذكر الجزاء الروحي لهم، فبعد التصريح بالجزاء الحسّي (جنّات عدن) يصرّح بالجزاء الروحي مباشرة، وهو على صور متعدّدة كما هو واضح في النصّ الكريم، يقابل ذلك في العذاب الروحي لفظ (لهم اللعنة)، وقد تكون دلالة هذا التباين أنّ أعمال أهل الجنّة كبيرة عند الله، وكذلك جزاءهم – برحمته تعالى – سيكون كبيرًا. يبقى الاستواء في ذكر العاقبة لكلا الفريقين (لهم عقبى الدار، ولهم سوء الدار) ويمكن أن يدلّ هذا الاستواء

على حالة المكوث في داريهما؛ فالخلود لهما على حدٍ سواء، وما يجعلنا نرجّح هذا التأويل أنّ النصّ الكريم لم يذكر الخلود صراحة. بمعنى أنّ ذكره ضمنًا، والله أعلم.

٤. يلحظ ذكر اسم الإشارة (أولئك) في كلا الموطنين، وهو دالّ على البعد، ففي في حال أهل الجنّة (يراد به بعد منزلة المشار إليه، وارتفاع مكانته)[٧٤]، وفي حال أهل النّار يراد به بعد المشار إليه في الانحدار والانحطاط[٧٥]، وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٧٦]، وفي السياق نفسه يقول أيضًا في خطاب المجرمين: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٧٧].

وللموازنة بين التركيبين يمكن رصد ما يأتي:

١. من جملة ما قيل في عبارة (في شغل) أنّ أهل الجنّة دخلوها (فَرَأَوْا مَا لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ فَاشْتَغَلُوا بِهِ)[٧٨]، وأمّا قوله فاكهون فالفاكه (الْمُلْتَذُّ الْمُتَنَعِّمُ بِهِ وَمِنْهُ الْفَاكِهَةُ لِأَنَّهَا لَا تَكُونُ فِي السَّعَةِ إِلَّا لِلَذَّةٍ فَلَا تُؤْكَلُ لِدَفْعِ أَلَمِ الْجُوعِ)[٧٩]، وهذه صورة دقيقة لنعيمهم الحسّي اللذيذ، ثم يقرن بنعيم حسّي، يتمثل في قوله (في ظلال) وآخر روحي، يتمثل في قوله (على الأرائك متكئون)، وقوانين الدنيا وملذاتها تمكننا من إدراك دلالات هذه النعم، وأثرها البالغ في نفس صاحبها.

٢. من عظيم نعيم أهل الجنّة الروحي أنّ الله تعالى يسلّم عليهم[٨٠]، يقابل ذلك نوع الكلام عند أهل النّار، إذ يُنطق الله تعالى جوارحهم فتشهد عليهم، وهذا من قبيل العذاب الروحي؛ لأنّهم ينكرون أعمالهم السيّئة، وجوارحهم تكذّب ادعائهم. فالسياق ينبّه على التباين بين كلا الحالين؛ اختلاف القائل من جهة، واختلاف نوع الكلام من جهة.

٣. ومن عظيم نعيم أهل الجنّة الحسّي خمسة عناصر، هي: أنّ لهم أزواجًا، وأنّهم في ظلال، وأنّهم متكئون على الأرائك، وأنّ لهم فاكهة، وأنّ لهم ما يدّعون. يقابل ذلك عذاب حسّي واحد لأهل النّار، يتمثل في أنّهم يصلونها بما كانوا يكفرون، وقد تكون دلالة اختلاف التركيبين – المتمثّل في تعدّد ملذات أهل الجنّة – أنّ في السياق نفسه يقول تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٨١]. وعلى وفق ذلك سيُجزى كلٌّ وفق ما قدّم من عمل، ولا إشارة لرحمته تعالى في هذا السياق الأخير، ولكن وإذا ما جزى الله تعالى المؤمنين بعدله فلن يستحقوا الجنّة – كما قلنا– لذا جاء تعداد ملذات الجنّة؛ للدلالة على هذه الرحمة العظيمة، والله أعلم

٤. يذكر النصّ الكريم سبب دخول أهل النّار النّار بقوله: (بما كنتم تكفرون)، وفي خطاب أهل الجنّة لا يذكر مثل هذا السبب. وقد يكون هذا الأمر دالاً على استحقاق أهل النّار

جزاءهم، وعدم استحقاق أهل الجنّة جزاءهم، وإنّما يكرمهم الله فيدخلهم الجنّة، كما قلنا، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾(٨٢).

وللموازنة بين حالي الفريقين يمكن رصد ما يأتي:

١. تطلعنا في بدء النصّ الكريم تسميته تعالى لأهلا الجنّة بأنّهم (عباد) ويُلحظ على ذلك أمران: الأول أنّ الله تعالى مدحهم بهذه التسمية؛ فحسب المرء شرفًا أن يكون عبدًا لله، والأمر الآخر يتمثّل في حذف ياء النسب من هذه التسمية، وفي ذلك دلالة التوحيد المطلق لهؤلاء؛ فحذف الياء تدلّ على حصر العبوديّة به تعالى. يقابل ذلك تسمية أهل النّار بالمجرمين، وبهذا التوظيف الخاصّ لهذا الطباق الخاصّ تتحقق الثنائيّة، بمعنى أنّ التوحيد عبادة عظيمة؛ لدرجة أنّ الإجرام نقيضها.

٢. ويرصد البحث تسلسل ذكر دلالات هذا النص الكريم، أمّا الفريق الأول فالتصريح أولاً بنعيمهم الروحي، المتمثّل بنفي الخوف والحزن عنهم، ثمّ التصريح بعملهم المتمثّل بالإيمان بآيات الله والإسلام، ثمّ الرجوع إلى الجزاء ولكن بصورته الحسّيّة، حيث الوصف الدقيق لمظاهر هذا النّعيم، ثمّ التصريح بسبب دخولهم الجنّة.

٣. أمّا أهل النّار فالتسلسل في تناول هذه الدلالات مخالف في بعض محاوره، إذ التصريح أولاً بتسميتهم بالمجرمين، ثمّ التصريح بالعذاب الحسّي، ووصفه، ثم التصريح بالعذاب الروحي على صورتين يتوسطهما سبب دخولهم النّار، تتمثل الصورة الأولى بوصفهم أنّهم مبلسون (والإبلاس: اليأس من كلّ خير. وقيل: السكوت مع التحيّر)(٨٣)، ويتمثّل سبب دخولهم النّار أنّهم ظالمون، وتتمثل الصورة الأخرى للعذاب الروحي بإخبارهم من قبل مالك جهنّم: أنّهم ماكثون.

٤. ويستوقفنا هنا تقديم النّعيم الروحي، وتقديم العذاب الحسّي في كلا الحالين، وقد يكون سبب التقديم أثر وقعهما على أصحابهما، بمعنى أنّ النّعيم الروحي هو الأسمى والأكثر وقعًا في نفوس أهله، وكذلك العذاب الحسّي، والله أعلم.

٥. ويستوقفنا أيضًا ورود سبب دخولهم النّار بين صورتين للعذاب الروحي، وقد تكون دلالة ذلك المقاربة بين هذه المحاور، بمعنى أنّ الإبلاس من جهة، وإخبارهم بأنّهم ماكثون من جهة أخرى، لهما من الأثر السيئ في نفس صاحبه ما لا يقل أثرًا عن أثر الظلم الذي كسبته أيديهم، والله أعلم.

٦. وأخيرًا ينبغي الوقوف عند تصريح النصّ الكريم بسبب دخول أهل الجنّةِ الجنّةَ بقوله تعالى: (بما كنتم تعملون)، وهنا قد يبدو إشكالاً في دلالة هذه العبارة، ولاسيّما أنّ البحث كرّر القول بأنّ أهل الجنّة يدخلونها برحمة الله، مهما كانت أعمالهم، ولإزالة هذا الإشكال نبيّن دلالة (الباء) فهي (وَنَحْوُهَا، بَاءُ السَّبَبِ، أَيْ بِسَبَبِ عَمَلِكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، فَرَجَعَ الْكُلُّ إِلَى مَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ)[٨٤]، بمعنى أنّ هذه الأعمال كانت سببًا في رحمة الله لهم، وليس ثمنًا للجنّة، ثمّ إنّه هو الذي خلق هذه الأعمال وهدى عباده إليها، وبهذا فله الفضل كلّه، وبرحمته يدخل جنّته من يشاء، والله تعالى أعلم.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٨٥].

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

من اتبع الهدى		من أعرض عن الذكر	
الجزاء الروحي	الجزاء الحسّي	الجزاء الحسّي	الجزاء الروحي
لا يضلّ	لا يشقى	له معيشة ضنكا	يُحشر يوم القيامة أعمى

ويبدو للبحث أنّ بناء الثنائيّات يتوقف على السياق جملة وتفصيلا، ويمكن أن نلحظ الآتي:

١. تبدو ثنائيّة واضحةً في لفظتي (اتّبع، وأعرض) ولكن ما يستوقفنا هنا أنّ السياق عبّر عمّا يتّبعه المؤمنون بأنّه هدى، وعبّر عمّا يُعرض عنه الكافرون بأنّه ذكر، وهو نفسه. وقد يكون سرّ هذا التوظيف متعلقًا بما حققته رسالته تعالى لكلا الفريقين؛ أمّا من اتّبعها فكانت له هدى، وأخرجته من الظلمات إلى النور، وأمّا من أعرض عنها فقد صارت عليه حجّة يوم القيامة، بمعنى أنّه ذُكّر بوساطة هذه الرسالة، ولم يتعظ.

٢. ومن الواضح أيضًا ثنائيّة أخرى في لفظي: (لا يضلّ، وأعمى). وإذا تكلمنا بمفهوم الطباق فتستوقفنا هذه الثنائيّة أيضا؛ إذ لم تكن على سبيل الطباق الإيجاب (بصير، وأعمى) ولم تكن على سبيل طباق السلب (لا يضل، ويضل). وقد يكون سرّ ذلك بأثر رسالته تعالى بعبيده، فهي تضمن لهم عدم الضلال، ولكن لا تضمن لهم البصيرة؛ لأنّ البصيرة تتطلب استقامة

أ.م.د. عدي خالد محمود

تضاف إلى إتباع الهدى. وأمّا عدم توظيف لفظة (يضلّ) فلا تحقق دلالة العمى؛ لأنّ العمى يدلّ على ضياع وضلال كاملين، وهذا لا تدلّ عليه اللفظة الأخرى، والله أعلم.

٤. أمّا الثنائيّة الثالثة ففي عبارتي: (لا يشقى، وله معيشة ضنك) وهنا نستحضر افتراض لفظ: (يشقى) بالنسبة للكافر، وفي ذلك أمران: الأول إسناد المعنى للمؤمن، وإسناده لمعيشة الكافر، وليس للكافر نفسه. والأمر الآخر التعبير عن حال المؤمن بالجملة الفعلية، والتعبير عن حال الكافر بالجملة الاسمية، أمّا عن نفي أن يشقى المؤمن فهذا الأصل؛ فلا يسأل عنه، وأمّا أن ينسب الضنك للعيش فهو كناية عن شدّته، (وَيُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي عُسْرِ الْأُمُورِ فِي الْحَيَاةِ)[٨٦]، على غرار قوله تعالى ﴿فهو في عيشة راضية﴾[٨٧]، الذي ذكرناه سابقًا.

أمّا التعبير عن عدم شقاء المؤمن بالفعل فالفعل يدلّ على الحركة، ونفي هذه الحركة نفي لدلالة أي شكل من أشكال الشقاء، فلو كان بصيغة الاسم الدالّ على الثبوت فنفيه يدلّ عن نفي حال الثبوت فحسب، ولا يعني نفيه برمّته. ولكنّ الثبوت حاضر في الطرف الآخر، حيث التعبير عن ضنك عيشة الكافرين؛ وفي ذلك دلالة على شدّة هذا الضنك، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٨٨].

ويمكن تصنيف بعض دلالات السياق الكريم على وفق ما يأتي:

	حالهم	الإشارة للقول	جزاؤهم	علاقتهم بجهنّم	الإشارة للسمع
الذين كفروا	شاخصة أبصارهم	وَيلنا قَد كنّا في غفلة من هذا بل كُنَّا ظالمين	حصب جهنّم	أَنتم لها واردون	وَهم فيها لا يَسْمعون
الذين سبقتْ لهم منَّا الحُسْنى	لا يحزنهم الفزع الأكبر	هذا يومكم الذي كنتم توعدون	**وَهم في ما اشْتهت أنفسهم خالدون**	**أُولئك عنها مبعدون**	لا يَسمعون حسيسها

قبل رصد ثنائيّات هذا السياق الكريم يجب التنبيه على غياب ثنائيّة (الجنّة، والنّار) هنا، من جهة غياب ذكر (الجنّة) صراحة – والإشارة إليها ضمنًا – الأمر الذي جعل دلالة (جهنّم) تمثل محور دلالات السياق. ومع هذا كلّه فقد اشتمل السياق على ثنائيّات أخرى، وكما يأتي:

١. قد يكون غياب الذكر الصريح للجنّة الأثر في غياب الذكر الصريح للذين آمنوا، فقد لحظنا في سياقات أخرى ثنائيّة (الذين كفروا، والذين آمنوا) أمّا هنا فجاءت الثنائيّة بلفظ (الذين سبقت لهم منا الحسنى) وهي كناية عن موصوف[٨٩]، أي عن الذين آمنوا، ويرى البحث أنّ هذا يمثل ضربًا من المدح لهم، والله أعلم.

٢. خصوصيّة العذاب الروحي (شاخصة) بالبصر فقط، وعموميّة النّعيم الروحي، بقوله لا يحزنهم الفزع الأكبر، وهنا اتساع البون بين طرفي الثنائيّة؛ فتصوير العذاب الجزئي بهذه الشدّة يدلّ – بلا أدنى شك– على هوله بصورته الكليّة. ويقابل ذلك عدم تأثر أهل الجنّة بالفزع الأكبر، ومن باب أولى عدم تأثرهم بسواه، والله أعلم.

٣. حضور (القول، وقائله) لهما الأثر الكبير في تحقيق شكلين من ثنائيّات السياق الكريم، أمّا من جهة القول فنسبة لنوع هذا القول، الدالّ على التحسّر عند أهل النّار، والدالّ على بشارة التكريم عند أهل الجنّة، وأمّا من جهة قائل القول فعند أهل النّار هم القائلون، وعند أهل الجنّة فالقائلون الملائكة، بمعنى أنّ أهل النّار مخاطِبون، وأهل الجنّة مخاطَبون. وقد أشرنا لمثل هذه الدلالات في ثنائيّات سابقة.

٤. أهل الجنّة وأهل النّار يذكران بالتقييد مع جهنّم، من حيث لفظي: (أنتم لها واردون، أولئك عنها مبعدون). وذكر اسم الإشارة (أولئك) في سياق أهل الجنّة؛ للدلالة على بعد مرتبة المشار إليه في العلو. يقابل ذلك عدم ذكره في سياق أهل النّار، مع أنّ ذكره قد يدلّ على بعد المرتبة في الانحطاط، كما ذكرنا ذلك سابقًا، ولكنّ خصوصيّة السياق هنا حال دون ذكره؛ إذ تدور دلالاتها حول جهنّم، وحضور اسم الإشارة قد يبعدهم عن هذه الدلالة، وهم أهل لها، والله أعلم.

٥. اختلاف مفعول السمع، حيث أنّ مفعول السمع عند أهل الجنّة هو (حسيس جهنّم) حصرًا، بمعنى أنّهم يسمعون سوى هذه الأصوات. يقابل ذلك حذف المفعول عند أهل النّار، وهذه الحال تدلّ على تعميم المفعول[٩٠]، بمعنى أنّهم لا يسمعون شيئًا قط، وبذلك تتحقق ثنائيّة أخرى تدلّ على مظهر آخر من مظاهر النّعيم، والعذاب الروحيين، والله أعلم.

أ.م.د. عدي خالد محمود

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة يمكن إجمالها بما يأتي:

١. تقسّمت الدراسة على مباحث مثلت أنماط الجزاءين، من جهتي الحسّ والروح، وأوضحنا أنّ الحسّ نعني به ما يُدرك بوساطة الحواس الخمس، كالجنّة والنّار، والروحي ما لا يُدرك بوساطة هذه الحواس، كالأمن والفزع.

٢. ممّا تقدّم ظهرت ثنائيّات متعدّدة، من أنماط مختلفة، وبمساحات متباينة، قد تكون هذه المساحات مؤشرًا لنسبة هذه الأنماط في ورودها في القرآن الكريم.

٣. برهن البحث في مواطن عديدة على دلالتين، كثيرًا ما حضرتا في هذه الثنائيّات، وهما كرمه تعالى ورحمته مع أصحاب الجنّة من جهة، وعدله مع أصحاب النّار من جهة أخرى، وقلنا إنّ أهم مظاهر هذه الدلالات أنّه تعالى يهب الجنّة لمن لا يستحقها بعمله، وإنّما يدخلها برحمته تعالى فحسب، ولا يدخل النّار إلاّ من استحقها بسوء بعمله.

٤. أفاد البحث كثيرًا من معطيات الدرس النقدي والبلاغي عند العرب، بما في ذلك تقنيّة توزيع الدلالات في حقول دلاليّة، مقسّمة على شكل جداول، على وفق ما يتكرر في درسي النقد واللغة.

٥. يُلحظ اختلاف الجداول التي توضح دلالات النصوص القرآنية، من المساحة والشكل والعدد؛ تبعًا لاختلاف هذه الدلالات من نصّ لآخر، وطبيعة الحاجة لهذه الجداول، على وفق ما اجتهد الباحث، بما في ذلك غياب هذه الجداول في تأويل بعض النصوص.

٦. يمكن إدراج هذه الدراسة ضمن باب الطباق، ولكن بمفهومه السياقي، الذي يتجاوز ما تذكره كتب البلاغة العربيّة في مبحثي طباق السلب والإيجاب فحسب، ونعني بالطباق السياقي ما يتوقف طرفاه على طبيعة السياق وما يفضي إليه من دلالات.

٧. وقف البحث عند بعض الدلالات اللغوية والنحويّة الظاهرة، كما وقف عند دلالات السياق، فاجتهد في استنتاج بعضها، ممّا يقبله المعنى العام للتركيب السياقي، ولا يتعارض مع سواه من الدلالات القرآنية بحسب علمنا المتواضع.

٨. ومن ذلك يبدو جليًّا أنّ جملة ممّا ذهبنا إليه إنّما هو من قبيل استقراء النصّ القرآني، وتحكيم الذائقة الأدبيّة للمتلقي، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمدلول التركيبي من جهة، والشرعي من جهة أخرى، والله اعلم.

الهوامش

(١) الطباق: (ذكر النقيضين كقوله تعالى: يُحْيِي وَيُمِيتُ) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللّه (ت٧٤٥هـ)، المكتبة العنصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٣، ص١٣٧.

[٢] فعلى سبيل المثال – لا الحصر – في سورة الإنسان (٤–٢٢) عرض مفصّل لأهل الجنّة، والإشارة لأهل النّار بأنّ الله أعد لهم سلاسل وأغلالا وسعيرا، كما أنّ في سورة المؤمنون (١٠١–١١٦) عرض مفصل لأهل النّار، وإشارتان فقط لأهل الجنّة أنّهم مفلحون وأنهم فائزون.

[٣] سورة النازعات ٣٧–٤١.

[٤] قال تعالى: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) سورة الحجر ٣، وقد نبّه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم على الحرص وطول الأمل بقوله: (قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابَ عَلَى حُبِّ اثْنَيْنِ: حُبِّ الْحَيَاةِ، وَحُبِّ الْمَالِ). شرح السنة، البغوي الشافعي (ت ٥١٦هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ج ١٤، ص٢٨٣.

[٥] ينظر: لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار الحديث، القاهرة،٢٠٠٣م، مادة (جحم)، ج٢، ص٣٨.

[٦] البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنّكة، دار القلم– دمشق، والدار الشاميّة – بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص٣٧٨.

[٧] سورة البقرة ٨١–٨٢.

[٨] ينظر: معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، عمّان، ط٢، ٢٠٠٣م، ج٤، ص١٠٤.

[٩] سورة النساء ٤٠.

[١٠] ينظر: معاني النحو ٢٠٤–٢٠٥.

[١١] المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، . باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم الحديث ٢٨١٦، ج٤، ص٢١٦٩.

[١٢] سورة البروج ١٠–١١.

[١٣] سورة القارعة ٦–١١.

[١٤] المجاز: (ما أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب). الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣٧/١.

[١٥] التحرير والتنوير«تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، ج٢٩، ص١٣٣.

(١٦) أمّا الرأيان الآخران فهما: الأول (فَأُمُّ رَأْسِهِ هَاوِيَةٌ فِي النّار ذَكَرَهُ الْأَخْفَشُ وَالْكَلْبِيُّ وَقَتَادَةُ قَالَ: لِأَنَّهُمْ يهوون في النّار على رؤوسهم) والرأي الآخر: (أَنَّهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى الرَّجُلِ بِالْهَلَاكِ قَالُوا: هَوَتْ أُمُّهُ لِأَنَّهُ إِذَا هَوَى أَيْ سَقَطَ وَهَلَكَ فَقَدْ هَوَتْ أُمُّهُ حُزْنًا وَثُكْلًا) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج٣٢، ص٢٦٨.

(١٧) المصدر نفسه ٣٢/ ٢٦٨.

(١٨) سورة النساء ٥٦-٥٧.

(١٩) سورة الكهف ٢٩-٣١.

(٢٠) سورة الفرقان ١١-١٦

(٢١) سورة الأنعام ١٦٤.

(٢٢) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، المعروف بخطيب دمشق (ت٧٣٩هـ) تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ج٢، ص١١٤.

(٢٣) ينظر: لسان العرب ٤/٥٨٥.

(٢٤) سورة السجدة ١٩-٢٠.

(٢٥) لسان العرب ٨/٥٢٤.

(٢٦) سورة الواقعة ١٧-٢٠.

(٢٧) سورة الواقعة ٥٢-٥٥.

(٢٨) سورة آل عمران ١٠٤-١٠٥.

(٢٩) سورة البقرة ٣٨-٣٩.

(٣٠) المسند الصحيح المختصر ٣/١٢٥٥.

(٣١) سورة البقرة من الآية ٣٥.

(٣٢) سورة طه ١١٧.

(٣٣) ينظر: معاني النحو ١/٨٣.

[٣٤] سورة الحج ١٩-٢٣.

[٣٥] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ج٣، ص١٥٠.

[٣٦] سورة الملك ٦

[٣٧] سورة الملك ١٢.

[٣٨] سورة النمل ٨٩-٩٠.

[٣٩] (العهدية: هي التي عهد مصحوبها، بتقدم ذكره. نحو: جاءني رجل فأكرهت الرجل، أو بحضوره حساً، كقولك لمن سدد سهماً: القرطاس، أو علماً، كقوله تعالى " إذ هما في الغار "). الجنى الداني في حروف المعاني، بدر الدين حسن المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د فخر الدين قباوة،والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط١، ١٩٩٢م، ص ١٩٤.

[٤٠] ينظر: تفسير الرازي ٢٤/٥٧٤.

[٤١] سورة الأنعام ١٦٠.

[٤٢] سورة الزمر ١٥-١٨.

[٤٣] تفسير الرازي ٤/١١٩.

[٤٤] سورة النساء ١٣-١٤.

[٤٥] سنن الترمذي، الترمذي، (ت٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٧٥م، ج٣، ص٦٥٢.

[٤٦] سورة الرعد من الآية ٢٣.

[٤٧] سورة هود ١٨-٢٤.

[٤٨] ينظر: التحرير والتنوير ١٢/٤٣.

[٤٩] سورة المؤمنون ١٠٢-١٠٤.

[٥٠] سورة لقمان ٦-٩.

[٥١] سورة التوبة ١٠٠-١٠٢.

[٥٢] سورة يونس ٧-١٠

(٥٣) سورة الحجر ٤٢-٤٨.

(٥٤) تفسير الرازي ١٤٦/١٩.

(٥٥) سورة الزمر من الآية ٧٢.

(٥٦) سورة الزمر من الآية ٧٣.

(٥٧) سورة البيّنة ٦-٨.

(٥٨) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ج ٥، ص٣٢٩.

(٥٩) تفسير البيضاوي ٣٢٩/٥.

(٦٠) سورة محمّد ١٥.

(٦١) سورة يونس ٢٦-٢٧.

(٦٢) سورة النساء، من الآية ٤٠.

(٦٣) سورة الحج ٤٩-٥٠.

(٦٤) سورة الحج ٥٦-٥٧.

(٦٥) سورة الرعد ٢٠-٢٥.

(٦٦) تفسير البيضاوي ١٨٦/٣.

(٦٧) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص ٢٤١.

(٦٨) سورة النحل ٢٤.

(٦٩) سورة النحل ٢٨-٣٢.

(٧٠) تفسير الكشاف ٦٠٣/٢.

(٧١) تفسير الرازي ٢٠٠/٢٠.

(٧٢) سورة الرعد ٢٢-٢٥.

(٧٣) تفسير الكشاف ٥٢٧/٢.

(٧٤) معاني النحو ٨٣/١.

(٧٥) ينظر: معاني النحو ٨٣/١.

(٧٦) سورة يس ٥٥-٥٨.

(٧٧) سورة يس ٦٣-٦٥.

(٧٨) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٩٤.

(٧٩) المصدر نفسه ٢٦/ ٢٩٤.

(٨٠) وكذلك الملائكة يسلمون عليهم، ينظر: المصدر نفسه ٢٣٨/١٧.

(٨١) سورة يس ٥٣-٥٤.

(٨٢) سورة الزخرف ٦٨-٧٧.

(٨٣) تفسير الكشاف ١٩٧/٣.

(٨٤) شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين الحنفي الدمشقي (ت ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط١، ١٤١٨هـ، ص ٤٤١.

(٨٥) سورة طه ١٢٣-١٢٤.

(٨٦) التحرير والتنوير ٣٣١/١٦.

(٨٧) سورة الحاقّة ٢١.

(٨٨) سورة الأنبياء ٩٧-١٠٣.

(٨٩) الكناية عن الموصوف: أن لا يُذكر المعنى باسمه، وإنّما يُذكر بصفة من صفاته. ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي (ت٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٧م، ص ٤٠٤.

(٩٠) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيّة، مصر، ج٢، ص١١.